مسجد الخميس أو المشهد ذو المنارتين

دراسة تاريخية تحليلية لنشأته وبنائه وأسمائه

بقلم/ عبد الخالق الجنبي

مرآة البحرين
Bahrain Mirror

مسجد الخميس أو المشهد ذو المنارتين

دراسة تاريخية تحليلية لنشأته وبنائه وأسمائه

بقلم/ عبد الخالق الجنبي

صحيفة إلكترونية مستقلة تعنى بالشأن البحريني

© جميع الحقوق محفوظة لصحيفة مرآة البحرين

www.bhmirror.no-ip.org | www.bahrainmirror.com
editor@bahrainmirror.com | info@bahrainmirror.com

تمهيد

عندما احتلّ القرامطة إقليم البحرين في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري كان من الأشياء التي فعلوها هو هدم المساجد فيها، ولم يسمحوا لسكان إقليم البحرين أن يبنوا أي مسجد في مدنه وقراه، وفي هذا الصدد يقول ابن المقرَّب العُيوني واصفاً ما فعلوه بقبيلته عبد القيس وبلده البحرين:

وَحَرَّقُوْا عَبْدَ قَيْسٍ فِيْ مَنَازِلِهَا

وَصَيَّرُوْا الغُرَّ مِنْ سَادَاتِهَا حِمَمَا

وَأبْطَلُوْا الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ، وَانْتَهَكُوْا

شَهْرَ الصِّيَامِ، وَنَصُّوْا مِنْهُمُ صَنَمَا

وَمَا بَنَوْا مَسْجِداً للهِ نَعْرِفُهُ

بَلْ كُلَّ مَا أدْرَكُوْهُ قَاْمَاً هُدِمَا

وعلّق الشارح على هذه الأبيات بقوله: «**وَكَانَ أَبُوْ سَعِيْدٍ الجَنَّابِيّ حِينَ مَلَكَ البَحْرَيْن، واستذلَّ أَهْلَها، واسْتَقامَ أمرُه بهَا؛ هَدَمَ مَا كَانَ فِيْهَا مِنْ المسَاْجِدِ، وَأَبْطَلَ الصَّلاةَ، وَكَانَ لا يُصَلِّيْ أَحَدٌ بهَا إلا خفْيَةً مُدَّةَ دَوْلَةِ القَرَاْمِطَةْ**»[1].

وفي الواقع فإنّ تهديم القرامطة لمساجد البحرين أو تعطيلها قد ذكره أكثر من مؤرخٍ سابق لشارح الديوان المقرَّبي المعاصر لابن المقرَّب، فعندما تحدث المقدسي (توفي 390هـ - 999م) في كتابه (أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم) عن الأحساء قال عنها:

«**الأَحْسَاْءُ: قَصَبةُ هَجَر، وَتُسَمّىْ البَحْرَيْن، كبيرةٌ كثيرةُ النَّخيْل عَاْمِرَةٌ آهِلَةٌ، .. وبها مُسْتَقَرُّ القَرَامطَةِ مِنْ آلِ أَبِيْ سَعِيْدٍ، ثمَّ نظَرٌ وَعَدْلٌ، غَيرَ أنَّ الجامِعَ مُعَطَّلْ**».

ثمَّ نجد في تاريخ غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ الذي ذيّل به على تواريخ آبائه نصّاً يرويه عن من سُمّي بأبي حفص الريحاني (لعلها البحراني) يؤكد فيه على أنّ القطيف والأحساء كانت في العام (458هـ - 1065م) أي قبل تحررهما من القرامطة بعقد من الزمن تقريباً كان لا يُصلىْ فيهما جُمعة ولا جماعة[2].

ودوَّن ناصر خسرو الذي ولد بعد المقدسي بأربع سنوات (توفي 481هـ - 1088م) ذات الملاحظة في رحلته، فقد نصَّ على أنّ أبا سعيد الجنابي مؤسس دولة القرامطة عندما حكم الأحساء أسقط عن أتباعه الصلاة والصوم؛ كما أشار إلى خلو الأحساء من مسجد جامع، فقال في هذا الصدد:

«وليس في مدينة الحسا مسجد جمعة ولا تقام بها صلاة

1) شارح مجهول من القرن السابع الهجري: شرح ديوان ابن المقرَّب؛ تحقيق عبد الخالق الجنبي (بيروت: دار المحجة البيضاء 2012م)؛ ج4: 2123 – 2127.

2) سهيل زكار: الجامع في أخبار القرامطة (دمشق: دار حسان للطباعة والنشر 1982م)؛ ج1: 84.

أو خطبة»[3].

كما يشير إلى أنّ رجلاً فارسيا في الأحساء اسمه علي بن أحمد كان يتعهد الحجاج الواصلين إلى الأحساء في طريقهم إلى الحجاز قام ببناء مسجد فيها ليؤدي فيه هؤلاء الحجاج الصلاة[4].

وفي الخطاب المروي لأبي سعيد الجنابي (أو لابنه أبي طاهر) الذي يردُّ فيه على الخليفة المقتدر العباسي نجده يعترف بحرقه للمساجد ولا ينكر ذلك؛ نعم هو برّر ذلك بحجة كان يراها، وهذا نصّ ما في خطابه مما يتعلق بحرق المساجد، وهو قوله مخاطباً المقتدر:

«فأمّا ما ذكرتَ من قتلِ الحجيجِ، وإخرابِ الأمصارِ، وإحراقِ المساجدِ، فوالله ما فعلت ذلك إلا بعد وضوح الحجة كإيضاح الشمس»[5].

ويعلل ذلك بقوله موجهاً الخطاب إلى المقتدر أيضاً:

«وأما ما ذكرت من إحراق مساجد الأبرار، فأي مساجد أحق بالخراب من مساجد إذا توسطتها، سمعت فيها الكذب على الله تعالى، وعلى رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأسانيد عن مشايخ فجرة، بما أجمعوا عليه من الضلالة، وابتدعوا من الجهالة»[6].

وهو ما زاده وضوحاً خطابُ أحد سكان إقليم البحرين، ثم جزيرة أوال منه، وهو أبو البهلول العبدي الذي ثار على القرامطة في أواسط القرن الخامس الهجري، وبعد أن تمكّن من تحرير أوال منهم تاقت نفسه إلى أنْ يحرر أختيها القطيف والأحساء أيضاً ليكتمل له في حكمه عقدُ هذه الحواضر الثلاث التي هي لبُّ إقليم البحرين القديم، فكان أن كتب خطابه الذي حفظته لنا بعض نسخ ديوان ابن المقرَّب، وأوردته كاملاً في شرح أخباره وثورته على القرامطة خلال شروح القصيدة الميمية التي مطلعها: «قُمْ فَاشْدُدِ العِيْسَ للتَّرْحَالِ مُعْتَزِمَاً»، ونجد في هذا الخطاب قول أبي البهلول واصفاً حال أبي سعيد مؤسس دولة القرامطة عند خروجه في البحرين وقيامه بتأسيس دولة القرامطة فيها: **«فقتل الأبطال، واجتاح الأموال، وخرّب المساجد، وعطّل المنابر والمشاهد»[7]**، ثم قال في موضع آخر من خطابه هذا مخاطباً وزير الخليفة بقوله: **«وأقيم لسيدنا ومولانا الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين .. في المسجد الجامع رسم الخطبة على العادة المعروفة، ثم ليْ بعده، إذ لا جامع في هذه الأقطار كلها مع عرضها وطولها يذكر فيه اسم الله إلا هو، وتقام الصلوات فيه سواه»[8]**، ثم يذكر في موضع ثالث بيت شعر لبعض شعراء المنطقة، وفيه النصّ على أنّ القرامطة حرّموا الصلوات الخمس في الإقليم، وهو قوله[9]:

وحَرَّموا الصلوات الخمسَ في هَجَرٍ

والكُفْرُ ينزل، والإيمان يرتحلُ

فكل هذه الروايات المتقدمة تدلُّ دلالة واضحة على أنه لم يكن يوجد في أقطار إقليم البحرين أي مسجد فضلاً عن جامع باستثناء هذا الجامع الذي أشار إليه

3) ناصر خسرو: سفر نامه؛ تحقيق يحيى الخشاب (بيروت: دار الكتاب الجديد 1983م)؛ الصفحة 143.

4) المصدر نفسه.

5) محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي المعافري اليماني: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة؛ تحقيق محمد عثمان الخشت (الرياض: مكتبة الساعي دت)؛ ج1: 60.

6) المصدر نفسه؛ ج1: 61.

7) شارح مجهول من القرن السابع الهجري: شرح ديوان ابن المقرَّب؛ تحقيق عبد الخالق الجنبي (بيروت: دار المحجة البيضاء 2012م)؛ ج4: 2254.

8) المصدر نفسه؛ ج4: 2261.

9) المصدر نفسه؛ ج4: 2265.

أبو البهلول في كلامه هنا؛ بل حتى هذا المسجد الجامع الذي أشار إليه أبو البهلول لم يكن موجوداً قبل أبي البهلول، فأبو البهلول هو الذي بناه وطلب من أخيه أبي الوليد أن يؤمّ الناس فيه لصلاة الجمعة والجماعة، وعليه فإنه يمكننا القول إنَّ النظرية التي تقول بارتقاء عمر مسجد الخميس الماثل أمامنا الآن إلى زمن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز لا يمكن لها أن تصمد أمام هذه الروايات والمعطيات التاريخية التي ذكرتُها لأنّ القرامطة ما كانوا ليسمحوا للسكان ببناء مسجد لصلاة الجماعة فضلاً عن جامع تؤدى فيه صلاة الجُمُعة، ومن واقع النصوص المتقدمة أيضاً، فإنّ كل المساجد التي كانت موجودة في إقليم البحرين، ولا سيما الجوامع منها هَدَمها القرامطة، نعم قد يكون أسفل هذا المسجد آثار لمسجد أقدم منه، أو أقدم من تاريخ البناء الأخير لهذا المسجد الماثل الآن، وهو أواسط القرن الخامس الهجري كما سنرى، وهو ما أشارت إليه بعض البعثات الاستكشافية إلا أنني غير معني بما تحت الثّرى لأن بحثي عن هذا المسجد هو بحثٌ تاريخي وليس آثاري.

فمن ا لواضح أنّ هدم القرامطة للمساجد لم يكن لمعتقد مذهبي خاص بهم، وإنما كان - وفق رأيي - لما كانت تضطلع به المساجد حينها، ولا سيما الجوامع منها في تأليب السكان المحليين على الثورة ضد الحكام الظلمة والمحتلين، فلهذا قاموا بهدمها ومنعوا بنائها، أو بناء مساجد أخرى جديدة، وعليه يمكن القول إنّه لم يكن في عهد القرامطة أي مسجد قائم في إقليم البحرين القديم، ولاسيما في حواضره الثلاث أي الأحساء والقطيف وجزيرة أوال، فضلاً عن جامعٍ كبير يجتمع فيه أهالي هذه البلاد فيتشاورون في شئونهم؛ بل ربما كان مصدر تدبير ثورة عليهم من قبل الأهالي الذين احتلّ القرامطة بلدانهم تلك، وهو ما حصل بالفعل عندما تمكن أبو البهلول أوّلُ ثوّار عبد القيس في البحرين، ثم في جزيرة أوال منها من أنْ يبني أوّل جامع فيها في العقد الخامس من القرن الخامس الهجري، وذلك بعد أن خدع القرامطة، وقام برشوتهم بمال وفير مستغلاً تردّي أوضاعهم الاقتصادية، وبدء قبول رجال دولتهم للرشى، وهو أمرٌ كان دائماً وأبداً أوّل مظاهر ضعف وانحطاط الدول في كل مكان وزمان، وأحد أسباب انهيارها على مرّ التاريخ، وبالفعل، فبعد أن بنى أبو البهلول جامعه هذا لم يمضِ عليه وقتٌ كثير إلا وهو يُعلن الثورة على القرامطة في جزيرة أوال بعد أن جمع قبيلته عبد القيس ووحد كلمتهم بفضل ما كان يلقيه عليهم أخوه أبو الوليد من خطب حضّهم فيها على الثورة ضد القرامطة، وهنا يُطرح سؤال عريض، وهو أين أقام أبو البهلول هذا الجامع الذي كان أوّل مسمار يُدقُّ على نعش سيطرة القرامطة على جزيرة أوال وإقليم البحرين كلّه؟.

متى بنى أبو البهلول المسجد؟

لقد أوضحت في تحقيقي للديوان المقرَّبي أنّ أبا البهلول بنى هذا المسجد قبل العام (450هـ - 1058م)[10]، وبالتالي فإنّ هذا المسجد يكون هو الجامع الذي نصّ على وجوده الإدريسي المتوفى عام 1164م في كتابه (نزهة المشتاق)، ولكنه قبل ذلك ذكر جزيرة أوال، وقال في وصفها أنها:

«جزيرة حسنة بها مدينة كبيرة تسمى البحرين وهي عامرة حسنة خصيبة كثيرة الزروع والنخل وفيها عيون

10) شارح مجهول من القرن السابع الهجري: شرح ديوان ابن المقرَّب؛ تحقيق عبد الخالق الجنبي (بيروت: دار المحجة البيضاء 2012م)؛ ج4: 2267.

مـاء كثـيرة ومياهـا عذبـة منهـا عـين تسـمى عـين بـو زيـدان ومنهـا عـين مويلغـة ومنهـا عـين عـذار وكلهـا في وسـط البلـد»[11].

ويهمنـي أن أشـير هنـا إلى قولـه عـن العيـون الثـلاث أنهـا تقـع في وسـط البلـد، وهـي عيـون ظلـت معروفـة حتـى وقتنـا هـذا بأسـمائها التـي ذكرهـا، وكلهـا تقـع ضمـن حـدود (البـلاد القديـم)، وهـو مـا يعنـي وفـق هـذا النـصّ أنّ (البـلاد القديـم) كانـت هـي العاصمـة القديمـة لأوال في الزمـن القديـم.

وعليـه فـإنّ الضّمـير في قولـه: «وهـي عامـرة حسـنة .. الـخ» يعـود إلى المدينـة الأواليـة التـي سـماها البحريـن، والتـي عرفنـا الآن أنـه كان يقصـد بهـا (البـلاد القديـم)، وهنـا يـأتي النّـصُّ الآخـر للإدريـسي عـن أوال ليبـين لنـا حقيقـة ناصعـة أخـرى، وهـي أنّ هـذه المدينـة كان بهـا جامـعٌ آهـل، فلنسـتمع إليـه وهـو يقـول:

«وفي البحـر جزيـرة ابـن كاوان، وفيهـا مدينـة، وجامـع آهـل، وهـي مـن كـورة أردشـير، وبقربهـا جزيـرة أوال، وبهـا أيضـا مدينـة، ولهـا جامـع، وفيهـا أسـواق صالحـة»[12].

فهـو هنـا يكـرر وجـود مدينـة في أوال، ويضيـف أنّ لهـذه المدينـة جامـع، والإدريـسي كـما نعلـم تـوفي عـام (450هـ - 1164م)، ولكنـه كان منـذ العـام (533هـ - 1138م) حـلّ ضيفـاً عـلى حاكـم جزيـرة صقليـة بروجـر الثـاني الـذي دعـاه للإقامـة عنـده، فلبـى طلبـه، وأقـام عنـده حتـى مماتـه لم يخـرج مـن صقليـة، فتكـون رؤيتـه لجزيـرة أوال وعيونهـا قـد تمـت قبـل العـام (533هـ - 1138م) وبعـد العـام (513هـ - 1119م) لأنـه في هـذا التاريـخ كان قـد أكمـل العشريـن مـن عمـره[13]، ويسـتبعد أن يقـوم بـأي رحلـة قبـل أن يبلـغ هـذا العمـر، فتكـون زيـارة الإدريـسي لجزيـرة أوال قـد حصلـت في زمـن العُيونيـين، ثـم في حكـم حفيـد مؤسـس الدولـة أبي سـنان محمـد بـن الفضـل بـن عبـد اللـه بـن عـلي العُيـوني، وهـذا الحاكـم هـو صاحـب نقـش المنـارة الغربيـة في مسـجد الخميـس، وعليـه فإنـه لا بـد مـن أن يُطـرح علينـا هـذا السـؤال العريـض.

هـل مسـجد الخميـس هـو المسـجد الجامـع الـذي بنـاه أبـو البهلـول

والجـواب هـو نعـم، فمسـجد الخميـس يقـع في مـا يُعـرف بـ(البـلاد القديـم) التـي مـرّ بنـا للتـو في حديـث الإدريـسي مـا يـدلُّ عـلى أنهـا كانـت العاصمـة القديمـة لجزيـرة أوال قبـل نشـوء المنامـة العاصمـة الحاليـة، وكان هـذا المسـجد يقـع شـمال السـاحة التـي كان يُقـام فيهـا سـوق الخميـس أشـهر أسـواق البحريـن، وهـي سـوقٌ كان لهـا نسـختان شـبيهتان بهـا، وهـما سـوق الخميـس في القطيـف، وسـوق الخميـس في الأحسـاء، وكل هـذه السـوقات الثـلاث كانـت عبـارة عـن مجمعـات ضخمـة لبيـع وشراء كل مـا يَصْـدُقُ عليـه وَصْـفُ البيـع مـع ملاحظـة وجـود صفـة مشـتركة بـين هـذه الأسـواق الثـلاث، وهـو قيامهـا جميعـاً عنـد عواصـم هـذه البلـدات الثـلاث، فـكان سـوق خميـس الأحسـاء يقـام عنـد (الهُفُـوْف)، وهـي عاصمـة الأحسـاء، وسـوق خميـس القطيـف يُقـام عنـد عاصمتهـا (القَلْعَـة)، وسـوق خميـس أوال يُقـام عنـد (البـلاد القديـم)، وهـي العاصمـة القديمـة للجزيـرة[14]، وهـذا هـو المألـوف في كل مـدن العـالم القديمـة،

11) انظـر مخطوطـة المكتبـة الفرنسـية رقـم (Arabe 2221)؛ الورقـة 143 ظهـر، وقـد كتبـت بوزيـدان والمويلغـة صحيحتي الرسـم، وأمـا عـذاري، فقـد كتبـت (عـزار)، والصحيـح مـا أثبتـه، وهـي عـينٌ شـهيرة معروفـة حتـى وقتنـا هـذا.

12) انظر مخطوطة المكتبة الفرنسية رقم (Arabe 2221)؛ الورقة 150 وجه.

13) ولد الإدريسي عام 493 للهجرة.

14) الشـيخ عـلي بـن حسـن البـلادي البحـراني: أنـوار البدريـن في تراجـم علـماء القطيـف والأحسـاء والبحريـن؛ تحقيـق محمـد عـلي محمـد رضـا الطبـسي (النجـف: مطبعـة النعـمان 1377هـ)؛ الصفحة 150.

وهـو أن تكـون السـوق الكـبرى مرتبطـة دائمـاً بالعاصمـة سـواءً أكانـت فيهـا أو في جوارهـا.

وبالإضافـة إلى مـا تقـدم، فإنـه توجـد كثـير مـن القرائـن المعتـبرة التـي تـدل عـلى أنّ المسـجد الجامـع الـذي بنـاه أبـو البهلـول هـو المسـجد ذاتـه الـذي عُـرف فيـما بعـد بـ(المسـجد الجامـع ذي المنارتـين)، ثـم عُـرف لاحقـاً، وحتـى وقتنـا الحديـث بـ(مسـجد الخميـس)، وهـذه القرائـن هي ما يلي[15]:

1. وقـوع مسـجد الخميـس في البـلاد القديـم العاصمـة القديمـة لجزيـرة أوال، وقيـام أقـدم وأشـهر سـوق في الجزيـرة بالقـرب منـه، وهـي سـوق الخميـس.

2. وقـوع مسـجد الخميـس بالقـرب مـن العـين القديمـة المسـماة بـ(أبـو زيـدان) إحـدى عيـون البـلاد القديـم التـي تقـع للجنـوب الغـربي مـن مسـجد الخميـس بمئتـي مـتر فقـط، وهـذه العـين هـي التـي وردت في كلام الإدريـسي الـذي أثبتـه قبـل قليـل عـلى أنهـا إحـدى العيـون التـي تقـع وسـط مدينـة البحريـن ذات الجامـع، وورد اسـمُ هـذه العـين أيضـاً في خـبر ثـورة أبي البهلـول حيـث قـام بقتـل ابـن أبي العريـان فيهـا بعـد انشـقاقه عـن ثورتـه، ومكاتبتـه للقرامطة بالموافقـة عـلى القتـال إلى جانبهـم ضـد أبي البهلـول، وهـذا كلـه يـدل عـلى قـرب المسـجد الـذي بنـاه أبـو البهلـول مـن هـذه العـين، وهـو مـا عليـه حـال مسـجد الخميـس أيضـاً الـذي يقـع شـمال شرق هـذه العـين بمائتـي مـترٍ فقـط.

3. وُصـف المسـجد الـذي بنـاه أبـو البهلـول بأنـه (جامـع)، وذلـك عـلى لسـان أبي البهلـول نفسـه وعـلى لسـان شـارح الديـوان المقـرَّبي أيضـاً[16]، والجامـع يعنـي أنـه أكـبر مسـاجد البلـد الـذي تـؤدى فيـه صـلاة الجمعـة، وهـذا الوصـف ينطبـق أيضـاً عـلى مسـجد الخميـس، فهـو كان حتـى وقـتٍ قريـب يُنعـتُ بالمسـجد الجامـع[17]، وكانـت صـلاة الجمعـة تـؤدى فيـه حتـى وقـتٍ قريـبٍ.

4. يوجـد في مسـجد الخميـس المنـارة الغربيـة القديمـة التي بناهـا أبـو سـنان محمـد بـن الفضـل بـن عبـد اللـه العُيـوني حفيـد مؤسـس الدولـة العُيونيـة وثالـث حكامهـا في العقـد الثـاني مـن القـرن السـادس الهجـري، ولا زال النقـش اللـذي يـؤرخ بنـاء هـذه المنـارة في العـام (518هـ - 1124م) موجـود حتـى الآن عـلى هـذه المنـارة، وأبـو سـنان هـذا هـو الـذي رجحـت أنّ زيـارة الإدريـسي لأوال ووصفـه لمدينتهـا (البـلاد القديـم)، وعيونهـا الثـلاث (أبـو زيـدان)، و(المويلغـة)، و(عـذاري)، وذكـره لوجـود جامـعٍ بهـا كانـت في عهـده، ولهـذا فمـن المرجّـح أنّ هـذه المنـارة بناهـا أبـو سـنان في ذات الجامـع الـذي ذكـره الإدريـسي، وهـذا هـو المعهـود مـن كل دولـة تزيـح دولـة سـابقة لهـا، فإنهـا تتخـذ مـن عاصمـة وقصـور الحـكام السـابقين الذيـن أزاحوهـم عاصمـةً وقصـوراً لهـم لتوفـر ذلـك عـلى كل مـا يليـق بسـكن الحاكـم الجديـد، ومـن ضمـن ذلـك سـيكون الجامـع الرسـمي للدولـة السـابقة، وهـذا مـا يبـدو أنّ الدولـة العُيونيـة قـد فعلتـه بخصـوص مسـجد أبي البهلـول الجامـع الـذي اتخذتـه جامعـاً لهـا تتـلى فيـه العهـود وتؤخـذ فيـه البيعـة، ويكـون المـكان الأفضـل لإعـلان كل مـا يهـم الدولـة أن تعلـن عنـه للرعيـة، فـكان هـذا المسـجد الجامـع كذلـك، وسـيظلُّ محتفظـاً

15) كنـت قـد أشرت في الطبعـة الأولى مـن شرح ديـوان ابـن المقـرَّب التـي صـدرت عـام 2003م (ج2: 983) إلى ترجيحـي أن يكـون المسـجد الجامـع الـذي بنـاه أبـو البهلـول هـو المسـجد المعـروف الآن بـ(مسـجد الخميـس).

16) شـارح مجهـول مـن القـرن السـابع الهجـري: شرح ديـوان ابـن المقـرَّب؛ تحقيـق عبـد الخالـق الجنبـي (بـيروت: دار المحجـة البيضـاء 2012م)؛ ج4: 2232، 2261.

17) الشـيخ عـلي بـن حسـن البـلادي البحـراني: أنـوار البدريـن في تراجـم علـماء القطيـف والأحسـاء والبحريـن؛ تحقيـق محمـد عـلي محمـد رضـا الطبـسي (النجـف: مطبعـة النعـمان 1377هـ)؛ الصفحة 134.

بمكانته هذه وطقوسه وخصائصه حتى بعد احتلال مملكة هرمز لجزيرة أوال في العقد الرابع من القرن السابع الهجري وحتى القرن الحادي عشر كما سنرى.

5. ومن القرائن أيضاً على أنّ مسجد الخميس هو المسجد الجامع الذي بناه أبو البهلول هو أنّ هذا المسجد يعتبر قياساً إلى مساجد جزيرة أوال الأخرى ذا مساحة كبيرة جداً بحيث إنّ أكبر المساجد القديمة الأخرى التي لا زالت باقية حتى الآن في الجزيرة مساحتها صغيرة جداً بالقياس إلى مسجد الخميس.

كيف تمكن أبو البهلول العبدي من بناء المسجد الجامع

لقد رأينا فيما مضى كيف أنّ القرامطة هدموا كل مساجد البحرين القائمة، ولم يكونوا ليسمحوا ببناء مساجد جديدة، ولكن أبا البهلول استغلّ بذكاء تأزم الوضع الاقتصادي الذي كان القرامطة يمرون به، واحتياجهم المتواصل إلى الأموال التي كانوا يصرفونها على إدارة شئون دولتهم، ودفع رواتب موظفيهم وحرسهم من عامر ربيعة وغيرهم، وكانوا كثيراً ما يضغطون على جباة الضرائب من السكان لتحصيل أكبر قدر من الأموال نظراً للأوضاع الاقتصادية المتردية لديهم، وكان اعتمادهم في المقام الأول على جباية الضرائب الباهظة التي فرضوها على السكان في مدن إقليم البحرين، والذين أقاموا عليهم عرفاء منهم يضمنون لهم الضرائب التي يجب عليهم دفعها سنوياً، وكان أبو البهلول أحد هؤلاء العرفاء الضامنين[18]، وكانوا ينتقدون جبايته للأموال من قومه وقلتها، ويتهمونه بالتساهل معهم.

وهنا استغلّ أبو البهلول الفرصة، وخاطب القرامطة ليأذنوا له في بناء مسجد في جزيرة أوال موضحاً لهم بطريقة ذكية أنّ قلة مال الضرائب الذي يدفعه إليهم يعود السبب فيه لكساد سوق الجزيرة بسبب نفور المسافرين والتجار العجم الذين كانوا أهم زبائن الجزيرة وأعظم مورد للأموال الواصلة إليها من المجيء إلى جزيرة أوال بسبب خلوها من مسجد جامع يُصَلُّوْنَ فيه[19]، ولهذا اقترح أبو البهلول بدَهاءٍ واضح على القرامطة أنْ يقوم ببناء مسجد جامع حتى يغري العجم وتجارهم بالمجيء إلى الجزيرة والبيع والشراء فيها مما سوف ينعش اقتصادها، ويكثر أموالها الأمر الذي سوف يجعل مال الضرائب التي للقرامطة أكثر بكثير مما يأخذونه منها حالياً.

وكان اقتراحه هذا اقترحه على والي الجزيرة من قبل القرامطة، وكان يُسمى جعفر بن أبي محمد بن عرهم الذي كان يعرف أنّ القرامطة لا يسمحون ببناء المساجد مطلقاً، ولهذا فإنه لم يكن ليستطيع أن يبتَّ في هذا الأمر الخطير، ويوافق أبا البهلول على مقترحه مع أنّ علاقة الرجلين كانت جيدة حسب ما ورد في شرح أحوال ثورة أبي البهلول في الديوان المقرَّبي[20]، ومع ذلك فقد ارتأى أن يكتب إلى أسياده بما اقترحه أبو البهلول عليه حتى يأمن انتقامهم منه، وبالفعل أرسل إليهم في عاصمة ملكهم الأحساء بما اقترحه عليه أبو البهلول مع عرضٍ مغرٍ قرر أبو البهلول إعطائهم إياه، وهو ثلاثة آلاف دينار في حال الموافقة، وما أسرع بأنْ جاءه الجواب بالإيجاب، وأمروا واليهم على الجزيرة أنْ يسمح لأبي البهلول ببناء المسجد

18) شارح مجهول من القرن السابع الهجري: شرح ديوان ابن المقرَّب؛ تحقيق عبد الخالق الجنبي (بيروت: دار المحجة البيضاء 2012م)؛ ج4: 2230

19) شارح مجهول من القرن السابع الهجري: شرح ديوان ابن المقرَّب؛ تحقيق عبد الخالق الجنبي (بيروت: دار المحجة البيضاء 2012م)؛ ج4: 2231 – 2232.

20) المصدر نفسه؛ ج4: 2235 - 2236.

الـذي طلبـه دون أن يدركـوا أنّ هـذا المسـجد سـوف يكـون سـبب خـروج هـذه الجزيـرة مـن أيديهـم.

وبالفعـل فقـد شرع أبـو البهلـول في بنـاء هـذا الجامـع، وبمجـرّد أن أتـم بنـاءه تـم اسـتخدامه - إلى جانـب الغـرض الدينـي مـن تأديـة الصـلاة جمعـة وجماعـة فيـه - لغـرض سـياسي أيضـاً مـن قبـل أبي البهلـول، وهـو الدعـوة إلى الثـورة عـلى القرامطـة وطردهـم مـن الجزيـرة، وبالفعـل فقـد تـمَّ لـه ذلـك بعـد أحـداث وحـروب عصيبـة بينـه وبينهـم حتـى تمكـن مـن الانتصـار عليهـم وطردهـم مـن الجزيـرة، وهـذا كل مـا يعنينـا مـن سرد أحـداث هـذه الثـورة لأننـي ذكـرت كل هـذا الـكلام الطويـل لـكي أصـل إلى نتيجـة واضحـة، وهـي أنّ هـذا المسـجد الجامـع الـذي بنـاه أبـو البهلـول كان أوّل مسـجد بُنـي في البحريـن إبـان قيـام دولـة القرامطـة فيهـا، والذيـن كانـوا قـد هدمـوا كل مسـاجد البحريـن كـما رأينـا مـن النصـوص المتقدمـة، ومنعـوا سـكانها مـن بنـاء مسـاجد جديـدة فيهـا.

الأسماء التي أطلقت على المسجد

لقـد رأينـا أنّ هـذا المسـجد عندمـا أسسـه أبـو البهلـول أطلق عليـه اسـم (المسـجد الجامـع) في أواسـط القـرن الخامـس الهجـري، وهـو الاسـم الـذي أطلقـه عليـه شـارح ديـوان ابـن المقـرَّب في أواسـط القـرن السـابع الهجـري[21].

ويبـدو أنـه ظـل معروفـاً بهـذا الاسـم لأكـثر مـن قـرن إلى أنْ ظهـر باسـمٍ جديـد لا نعـرف وقتـه عـلى التحديـد، ولكنـه ذُكـر بـه في نصّـين وردا في ديـوان الشـاعر جعفـر بـن محمـد الخطـي، وذلـك في بدايـة القـرن الحـادي عـشر الهجـري، وهـذا الاسـم هـو (المشـهد ذو المنارتـين)، وأول مـورد لهـذا الاسـم في هـذا الديـوان هـو في التذييـل عـلى قصيـدة رثـاء قالهـا الخطـي في قـاضي قضـاة البحريـن عبـد الـرؤوف بـن الحسـين الموسـوي عـام (1006هـ - 1597م)، فقـد ذكـر جامـع ديوانـه وراويتـه المعـروف بـ(الغنـوي) أنّ هـذه القصيـدة التأبينيـة ألقيـت مـع قـراءة العهـود والتقليـدات المقـررة مـن قبـل مملكـة هرمـوز (هرمـز) بتقليـد القضـاء لابـن المتـوفى السـيد جعفـر بـن عبـد الـرؤوف الموسـوي في هـذا المسـجد، ونـصُّ مـا ورد هـو قولـه: «**وكان ذلـك بالمشـهد المعـروف بـذي المنارتـين مـن أوال البحريـن ثالـث عـشر شـهر صفـر للسـنة السادسـة بعـد الألـف**»[22].

ثـم تكـرر وروده بهـذا الاسـم في مقدمـة قصيـدة غزليـة جـاء فيهـا قـول راويتـه: «**وجلـس في بعـض الليـالي المقمـرة في دهليـز المشـهد ذي المنارتـين مـن البحريـن في فتيـان مـن بلـده لهـم أنـسٌ بـالأدب**»[23].

ويلاحـظ مـن النـص الأول أنّ هـذا المسـجد كان هـو المسـجد الرسـمي الـذي كانـت تُقـرأ فيـه العهـود والتقليـدات المقـررة مـن قبـل مملكـة هرمـز التـي كانـت جزيـرة أوال خاضعـة لسـيطرتها منـذ العقـد الرابـع مـن القـرن السـابع الهجـري بعـد إسـقاط هـذه المملكـة لدولـة العُيونيـين في البحريـن، وهـذا كلـه يـدلُّ عـلى أنّ مسـجد الخميـس كان المسـجد الرسـمي للدولـة حينهـا كـما كان في عهـد أبي البهلـول والدولة العُيونيـة لم تتغـير منزلتـه، ولم يحـلَّ مسـجدٌ آخـر مكانـه؛ كـما يفهـم مـن النـصِّ الثـاني أنّـه كان لهـذا المسـجد دهليـز يجلـس فيـه أهـل الأدب ويتسـامرون فيـه في ليـالي الأنـس.

وأمـا تسـمية هـذا المسـجد بـ(مسـجد الخميـس)، فإننـا لا

21) شـارح مجهـول مـن القـرن السـابع الهجـري: شرح ديـوان ابـن المقـرَّب؛ تحقيـق عبـد الخالـق الجنبـي (بـيروت: دار المحجـة البيضـاء 2012م)؛ ج4: 2232، 2261.

22) جعفـر بـن محمـد العبـدي الخطّـي: ديـوان أبي البحـر الشـيخ جعفـر الخطـي؛ تحقيق أنيسـة أحمـد خليـل المنصـور وعبـد الجليـل منصـور العريّـض (الكويـت: مؤسسـة جائـزة عبـد العزيـز سـعود البابطـين للإبـداع الشـعري 2002م)؛ الصفحـة 225.

23) المصدر نفسه؛ الصفحة 282.

نعـرف متـى أضيـف إلى هـذا الموضـع، وإن كانـت هـذه الإضافـة قـد تمـت في وقـت متأخـر عـن القـرن الحـادي عـشر الهجـري لأنّ أقـدم إشـارة إلى ذلـك وردت عنـد البـلادي المتـوفى عـام (1340هـ - 1921م)، وذلـك في كتابـه (أنـوار البدريـن) حيـث نـراه يذكـر في ترجمـة الشـيخ سـلمان بـن عبـد اللـه العصفـور أنـه تـولى الحسـبة الشرعيـة في البحريـن وإقامـة الجمعـة والجماعـة، وذكـر أنّ محـلَّ إقامتـه الجمعـة كان في مشـهد الخميـس؛ يعنـي بـه مسـجد الخميـس[24]، وهـو الاسـم الـذي يُسـمى بـه هـذا الجامـع العظيـم الآن.

عبد الخالق بن عبد الجليل الجنبي

القطيف، 9 ذو القعدة 1435هـ

4 أيلول/سبتمبر 2014م

24) الشـيخ عـلي بـن حسـن البـلادي البحـراني: أنـوار البدريـن في تراجـم علـماء القطيـف والأحسـاء والبحريـن؛ تحقيـق محمـد عـلي محمـد رضـا الطبـسي (النجـف: مطبعـة النعـمان 1377هـ)؛ الصفحة 215.

مرآة البحرين
Bahrain Mirror